

تلقي مسعود بودوخة للأسلوبية الغربية الحديثة ولنظرية النظم التراثية
Massoud Boudokha's reception of modern Western stylistics and the phenomenon of
ecological systems

رشيدة عيسى¹، أبو اعلاء إسحاق² رضوان جنيدي³

Rachida aissa¹, ishak abo elaa² djenidi Radhouane³

¹ جامعة تامنغست (الجزائر)

البريد الإلكتروني: docaissarachida@yahoo.com

البريد الإلكتروني: khaledtam2017@gmail.com

البريد الإلكتروني: salimdjenedi@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2023-01-14	تاريخ القبول: 2021-11-25	تاريخ الإرسال: 2021-11-19
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تلقي الباحثون العرب المحدثون الأسلوبية الحديثة الغربية بأشكال مختلفة تجاوزت التعريف والترجمة إلى الممارسة والتقويم، ولم يختلف حالهم مع نظرية النظم التراثية المتجددة، فقد خصصوا لها بحثاً عرّفت بها وأصلت لتاريخيتها، وانتقلوا بدراساتهم إلى الممارسة وتقصّي نقاط التلاقي بينها وبين الدراسات اللغوية اللسانية والنقدية الغربية الحديثة. وبالاعتماد على الوصف والتحليل واستخلاص النتائج ستحاول الدراسة تتبع تلقي مسعود بودوخة للأسلوبية الغربية ولنظرية النظم، وذلك من خلال الإجابة عن السؤالين التاليين: كيف تلقى مسعود بودوخة الأسلوبية الحديثة؟ وما الخصوصية المميزة لتلقيه نظرية النظم؟ .

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية، البلاغة، نظرية النظم، التلقي الجزائري، مسعود بودوخة

Abstract:

Modern western researchers had recieved modern western stylistics by diferent typs transcend the definition and the traduction to the practice and calendar then they did the same thing with the theory of renewable heritage systems they introduced it by some searches and tried to seek about th attachment points between it and modern western liguistic and critical linguistic studie

Keywords: stylistics, rhetoric, system theory, Algerian reception, Massoud Boudokha.

مقدمة:

يعدّ موضوع طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة من أبرز المواضيع التي تناولها الباحثون العرب في العصر الحديث، إذ بمجرد تلقي هؤلاء الباحثين للوافد الغربي المتمثل في الأسلوبية سعوا إلى التعريف به وترجمة أبرز كتب رواده الغربيين، ثم انتقلوا إلى تطبيق إجراءاته على الأعمال العربية التراثية والحديثة، ومنهم من ربطه بالتراث البلاغي واللغوي العربي ساعيا إلى التأصيل العربي للأسلوبية وتأكيد معرفة البلاغيين العرب لكثير من مباحثها، وأسبقيتهم في التأسيس لكثير من مصطلحاتها المستحدثة من خلال تفصي معادها الموضوعي.

وبالانتقال إلى نظرية النظم، فقد تباينت أشكال تلقي الباحثين العرب المحدثين لها بين من عرّف بها وتتبع تاريخيتها محاولا تأصيلها، وبين من تجاوز التعريف والتأصيل إلى التطبيق والممارسة، ومنهم من استفاد من البحوث اللغوية واللسانية الغربية، وسعى إلى عقد مقارنة بينها وبين نظرية النظم.

وسنحاول في دراستنا استعراض مواقف الباحثين أجنب وعربا من طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، ثم تقديم قراءة لكتابي الباحث الجزائري مسعود بودوخة (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) و(نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) للوقوف أمام شكل التلقي في كل كتاب منهما.

1. الأسلوبية والبلاغة: وراثته أم قطعة؟

تتداخل الأسلوبية مع مجموعة من العلوم اللغوية واللسانية، وتتجاوز ذلك لتتداخل مع النقد الأدبي، ولا تخفى العلاقة بين الأسلوبية الحديثة والبلاغة، إذ تأخذ هذه العلاقة أشكالا مختلفة تؤكد نقاط التلاقي بينهما، إلا أن الإشكالية التي تطرح في هذا الخصوص تتمثل في نوعية العلاقة بينهما: أهى علاقة وراثته تقرّ وراثته الأسلوبية الحديثة للبلاغة القديمة، وترسخ الأولى بديلا للثانية؟ أم هي علاقة تداخل وتقاطع تحفظ لكل علم منهما خصوصياته، وتضبط حدوده، وتنفي قضية الوراثة بينهما، وأن تكون الأسلوبية بديلا للبلاغة، أو أن تكون بلاغة حديثة حلت محلها؟.

إن المتتبع لآراء الباحثين الأجانب والعرب المحدثين حول قضية العلاقة بين الأسلوبية الحديثة والبلاغة يقف أمام مواقف مختلفة متباينة، يمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسين: أحدهما ينظر إلى هذه العلاقة من زاوية التأسيس الغربي لطرفي العلاقة؛ أي بين الأسلوبية الغربية الحديثة والبلاغة الغربية القديمة، والآخر ينظر إليها من زاوية التأصيل العربي للأسلوبية الحديثة وربطها بالبلاغة العربية القديمة؛ وسنحاول استعراض آراء بعض الدارسين الغربيين حول العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، ثم آراء بعض الباحثين العرب المتلقين للأسلوبية الغربية الحديثة ومواقفهم من علاقتها بالبلاغة سواء الغربية أو العربية التراثية.

يؤكد هرنيش بليث (Heinrich F. Plett) في تمهيد كتابه (البلاغة والأسلوبية نحو نموذجي سيميائي لتحليل النص) (Rhétorique et Stylistique) تاريخية تداخل البلاغة والأسلوبية، ويكشف عن حجم التداخل بينهما اتساعا وضيقا، "إذ تقيم البلاغة والأسلوبية منذ زمن علاقات وطيدة: تتقلص الأسلوبية أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن النموذج، وتتسع حتى تكاد تمثل البلاغة كلها باعتبارها بلاغة مختزلة"؛¹ لتؤكد حسب هرنيش العلاقة الوطيدة بينهما، بل العلاقات بينهما وتتأصل تاريخيا محققة في مرحلة من المراحل اختزال العلمين في علم واحد حين تستوعب الأسلوبية مباحث البلاغة.

ولا يكتفي بيير جيرو (Pierre Guirraud) في مواطن متفرقة من كتابه الأسلوبية (La Stylistique) بتأكيد تأرجح العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة تجزئيا واختزالا، وإنما يقرّ بشكل صريح وراثته الأسلوبية للبلاغة وانبعاثها بديلا عنها، أو تجدد البلاغة في صورة علم جديد هو الأسلوبية، يقول معتمدا على آراء سابقه ومبرزا أولية استخدام مصطلح (الأسلوبية): "ويمكننا

القول إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف، إنها علم التعبير، وهي نقد للأساليب الفردية [...] . نوفاليس هو أول من استخدم هذا المصطلح، والأسلوبية بالنسبة إليه تختلط مع البلاغة، وسيقول عنها هيلانغ من بعده (1837) إنها علم بلاغي²؛ ليكون بيير جيرو من أنصار وراثته الأسلوبية للبلاغة.

ويتبع جيرو تطور البلاغة الغربية وانتقالها التاريخي وتحددها في العصر الكلاسيكي، يقول: "انتقلت البلاغة من العصور القديمة إلى العصر الوسيط، ثم تجددت في العصر الكلاسيكي، وكوّنت أسلوبية هي في آن واحد علم التعبير وعلم الأدب"³، ويجيب عن إشكالية الفرق بين الأسلوبية وعلم الأسلوب من خلال ربطها بعلم البلاغة، يقول: "البلاغة هي أسلوبية القدماء، وهي علم الأسلوب"⁴؛ فيتضح لنا من خلال استنتاجه الأخير أن الأسلوبية لم ترث البلاغة وحسب، ولكنها تتداخل معها بشكل يجعل إحداها تنوب عن الأخرى، وتدل عليها وتسدها، ويستمر بيير جيرو في إقرار مدى التكامل بين الأسلوبية والبلاغة حين ينطلق من بدايات تأسيس الأسلوبية بعد أن استفاد التلميذ شارل بالي من أستاذه دي سوسير، يقول: "أما أسلوبية التعبير كما صرحها (بالي)، فقد نشأت عن البلاغة القديمة ولكن بطرق جديدة"⁵، فلولا البلاغة -حسب جيرو- لما كانت الأسلوبية.

ويضم فيلي ساندريس (Willy Sanders) في كتابه (نحو نظرية أسلوبية لسانية) (Towards alinguistic stylistic theory) صوته إلى أصوات سابقه مقرأ علاقة الوراثة بين الأسلوبية والبلاغة، وهو يتتبع تاريخية مصطلح (الأسلوب) بداية من دلالة على طريقة العرض كما عرف في القرن الخامس عشر في الثقافة الألمانية، ووصولاً إلى القرن التاسع عشر الذي عرف المفهوم الجديد للأسلوبية، يقول: "فحتى هذا التاريخ كانت معايير البلاغة (Rhetorik) هي المهيمنة، وكانت تؤدي الوظيفة نفسها التي تقوم بها الأسلوبية إلى درجة جاز فيها عدّ البلاغة السلف الشرعي للأسلوبية المعيارية، على رغم مما بينهما من خلاف في المادة المعتمدة"⁶؛ ففي الوقت التي تعتمد الأسلوبية على اللغة المكتوبة، تستند البلاغة إلى اللغة المنطوقة.

ويسم ساندريس أحد عناوين كتابه سابق الذكر بـ (البلاغة سلف الأسلوبية) وهو يستعرض (التطور الأسلوبي / تاريخية الأسلوب)، ولا يخفى ما يحمله هذا العنوان من دلالات الوراثة والاستخلاف والبديلية، ثم يتبعه بعنوان (آثار المنظور القديم في مفهوم الأسلوب)، يستهله بقوله: "ما دامت الأسلوبية وهي في إطار البلاغة متضمنة قيوداً معيارية محددة من حيث الوسائل الأسلوبية المحسنة وطريقة استعمالها، فإنها لم تكن مشكلة، ولم تصبح كذلك إلا بعد انهيار البلاغة وارتقائها هي إلى مرتبة علم مستقل، وللأسلوبية بوصفها أبرز وريث للنحو القديم والبلاغة بعامة وللشعرية المتأخرة بخاصة علاقة عقدية وطيدة وثابتة مع اللغة الشعرية لدى كبار الشعراء والكتاب"⁷؛ ويستشهد ساندريس بقول تودوروف في تأكيد علاقات التداخل بين الأسلوبية والبلاغة واللسانيات والشعرية، يقول: "ويرى تودوروف (T. Todorov) أن هذا التطور في الأسلوبية إثر هذا الموروث البلاغي والشعري مسؤول عما تشهده الأسلوبية من حالة تداخل بين اللسانيات والشعرية"⁸، لتؤكد علاقات التداخل بين الأسلوبية الغربية الحديثة وسلفها البلاغة الغربية القديمة.

يؤكد مقدم كتاب (البلاغة العامة) (Rhétorique Générale) أن مؤلفي الكاتب جاك دوبوا (Jacques Dubois) ومن معه يعترفون بما في "البلاغة القديمة من طرق بالية، فهم لا يرون أن ذلك كافٍ للتخلي عن هذا الفن، ولا يعتبرون أن دراسة الأسلوب يمكن أن تستغني عن الكثير من مفاهيمه. إلا أن البلاغة في نظرهم في حاجة إلى أن يعاد فيها النظر لا لترميمها، بل لبنائها على أسس جديدة حتى تستغل في الأسلوبية (Stylistique)"⁹؛ ولا يخفى ما في قول هؤلاء من دليل على استقلالية البلاغة عن الأسلوبية.

ويتأكد موقفهم من نفي علاقة الوراثة بين الأسلوبية والبلاغة من قولهم: "لقد رأى بعضهم هذا الرأي معتبراً أن البلاغة هي أسلوبية القدماء، إلا أن أصحاب الأسلوبية ينفرون من المقارنة بينهم وبين البلاغيين، فليس من غايتهم تعليم فن الكتابة كما

هو شأن البلاغة، ولا يعتبرون أن المصطلحات البلاغية ملائمة لأهدافهم¹⁰؛ ففي تصريحهم دعوة إلى تجديد البلاغة وذلك ببعث بلاغة جديدة تتقاطع مع الأسلوبية، ولكن دون وراثته أو انصهار يدلان على أن وجود الأسلوبية يفرض موت البلاغة تحقيقا للبدلية، فهذا الرأي ينفي قضية الوراثة نفيا قطعيا، ويثبت مبدأ التكامل والتداخل المحافظ على الاستقلالية، وينتج عنه وجود بلاغة قديمة وأخرى جديدة تتحقق من إعادة النظر في سلفها القديمة، وتعوضها أسلوبية حديثة.

وبالانتقال إلى مواقف الباحثين العرب المعاصرين من قضية العلاقة بين البلاغة والأسلوبية، يتبين لنا أن أغلب الدارسين ينظرون إلى العلاقة من زاوية التأصيل العربي للأسلوبية الحديثة وربطها بالبلاغة العربية القديمة، ومن أمثلة هؤلاء شكري محمد عياد الذي يستهل تقديم كتابه (مدخل إلى علم الأسلوب) بتأكيد أصالة الدرس الأسلوبي الحديث الغربي في الدرس البلاغي التراثي العربي، يقول: "الكلام عن الأسلوب قديم، أما (علم الأسلوب) فحديث جدا، ولكنني إذ أقدم إليك هذا الكتاب لا أغريك ببضاعة جديدة مستوردة، فعلم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا، لأن أصوله ترجع إلى علوم البلاغة، وثقافتنا العربية تزدهي بتراث غني في علوم البلاغة"¹¹؛ الباحث لا يقر وراثته الأسلوبية الغربية الحديثة للبلاغة الغربية وحسب، وإنما يقر بأصالة الدرس الأسلوبي الغربي الحديث في التراث العربي البلاغي العريق.

ويستمر الباحث في رسم الخطوط الرئيسة لكتابه المحققة لمشروعه المتضمن الاستفادة من الوافد الغربي الحديث في تجديد البلاغة العربية مع المحافظة على الخصوصية العربية، يقول: "والواقع من هذا الكتاب لا يصدر عن رغبة في الحداثة أو التحديث، فضلا عن أن يحاول فتنة الناس ببدعة جديدة من بدع الثقافة الغربية، ولكنه يحاول أن ينشئ في ثقافتنا العربية علما جديدا مستمدا من تراثنا اللغوي والأدبي، ومستجيبا لواقع التطور في هذا التراث الحي، ومستفيدا من دراسات أهل الغرب بالقدر الذي يمكن من رؤية التطور المعاصر رؤية تاريخية، وقراءة التاريخ قراءة عصرية"¹²؛ ليتأكد من القول وجود بلاغتين عربيتين إحداهما تراثية رسخها علماء البلاغة واللغة القدماء في عصور مختلفة، والأخرى جديدة ينشد الباحث بعثها وإيجادها، وتتقاطع مع علم الأسلوب (الأسلوبية) الغربية، وتستقي من معينها.

وقد تدفعنا البلاغتان اللتان أشار إليهما الباحث إلى التساؤل عن العلاقة بينهما، فهل يريد شكري عياد أن تزيل الجديدة منهما سلفها القديمة، وتهدمها لتأسس بنيانها الجديد؟، ويجب عن هذا التساؤل بما لا يدع مجالا للشك، يقول: "والخصم الذي يريد هذا الكتاب تدميره ليس بلاغتنا القديمة العظيمة، ولكنه الفوضى البلاغية - بل اللغوية - التي شاعت بيننا في السنوات الأخيرة، ولا سيما بين أدياء الشباب فهؤلاء عازمون - كما يبدو - على تحطيم كل بلاغة مأثورة، ولكنهم عاجزون - في الوقت نفسه - عن أن يحلوا محلها بلاغة جديدة. وهذا الكتاب يود أن يقول لهم إن تجديد اللغة الفنية ليس أمرا هينا، وإن وراء كل عمل أدبي جيد جهدا هائلا في الصياغة اللغوية"¹³، جهد لا يتكرر لثقافته الأصيلة وفكره الضارب بجذوره في القدم، وينشد في الوقت نفسه المعاصرة.

يخصص شكري عياد مبحثا في القسم النظري من كتابه يتناول فيه علاقة علم الأسلوب (الأسلوبية) بعلم البلاغة، ويطيل فيه استعراض ما بينهما من أوجه تشابه وأوجه اختلاف، فالأولى يحددها الموقف وطرق التعبير والهدف، في حين يتأكد الاختلاف بينهما من حيث تاريخ النشأة وكيفيات دراسة الظواهر اللغوية وحدود الدراسة، إذ تتسع آفاق علم الأسلوب مقارنة بعلم البلاغة، " فعلم الأسلوب يدرس الظواهر اللغوية جميعها، من أدنى مستوياتها - الصوت المجرد - إلى أعلاها وهو المعنى. ثم هو يدرسها في حالة البساطة وفي حالة التركيب [...] ثم إن علم الأسلوب لا يكتفي بدراسة الظواهر اللغوية في عصر واحد، ولا يمزج بين العصور كما تفعل البلاغة، بل يمكن أن يتتبع تطور الظاهرة على مر العصور"¹⁴، والباحث في استعراضه أوجه الاختلاف والتشابه بين الأسلوبية - علم الأسلوب - والبلاغة يزاوج بين الأصل الغربي لهما والخصائص العربية للبلاغة العربية.

لا يبتعد رأي صلاح فضل في كتابه (علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته) عن موقف سابقه خاصة فيما يتعلق بمواكبة الأسلوبية الغربية دون إهمال للبحوث التراثية الجادة، وقد قصر العلاقة بين الأسلوبية الغربية الحديثة وسلفها البلاغة الغربية القديمة، وأكد أهمية الثانية على الأولى، وأن علم الأسلوب الحديث حين تأسس بنيانه حلّ محلّ البلاغة القديمة في هذه مرحلة، يقول موضحاً ذلك: "وعندما شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية"¹⁵؛ ليقرّ بعدها أن بلاغة غربية جديدة بدأت تشق طريقها وتبحث عن موقع لها يضمن خصوصيتها وتميزها، إذ هناك من الباحثين الغربيين المحدثين "من يرون أن البلاغة الحديثة تمر الآن بصحوة حقيقية، فقد جذّت الدعوات في الآونة الأخيرة لبعث البلاغة النصية، حتى أسست (جمعية للبلاغة والأسلوب) في نطاق الاتحاد الدولي لعلوم اللغة التطبيقية، كما أنشئت (الجمعية الدولية لتاريخ البلاغة)، وشرعت في نشر مجلّتها الدورية منذ 1978، وتنشر (جمعية البلاغة في أمريكا) دوريتها منذ عام 1976، كما عقدت الندوات والمؤتمرات المتعددة لمناقشة قضايا البلاغة الحديثة وعلم الأسلوب بشكل منتظم في السنوات الأخيرة"¹⁶، وفي ذلك تأكيد على أمرين: أولهما أن الأسلوبية تسير جنباً إلى جنب مع البلاغة تجسّد التداخل والتقاطع وربما التكامل، وثانيهما وأخهما أن البلاغة الحديثة أو الجديدة ترسخ انفصالها عن الأسلوبية وتنفي علاقة الوراثة بينهما.

يعقد عدنان بن ذريل مبحثاً في كتابه (النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق) يختار له (بين البلاغة والأسلوبية) عنواناً يشارك من خلاله الباحث آراء المعاصرين له والسابقين في تأكيد علاقة الارتباط والاشتراك بين الأسلوبية والبلاغة، يقول: "والدارسون في البلاغة والأسلوبية اليوم يعترفون بوجود منطقة مشتركة بين (البلاغة) و(الأسلوبية) يعملون كما يعمل علماء النص على دراستها، والإفادة منها، خاصة ما يسمى بـ (الحزمة الأسلوبية)، أي ما في النص من مؤشرات دالة، أو ذات دلالة: وهي (المؤشرات) التي تتداخلها: - صور البلاغة، وحس الجمال، والجمالية"¹⁷؛ ثم بين أن المقصود بالمؤشرات الدالة هي الانحرافات المتضمنة في النسيج الأدبي للنص، والتي تجعل البلاغة تتداخل مع الأسلوبية، وهو تداخل يحقق خصوصية كل علم منهما واستقلاله عن الآخر.

يؤكد بن ذريل مباينة البلاغة للأسلوبية واحتفاظ كل منهما بحدود دراسته وفي ذلك تحقق للاستقلالية التي لا ينتفي معها الاشتراك والتقاطع والتداخل، ذلك: "أن (الأسلوبية) تصافح الملفوظات الأدبية في حسيتها المباشرة، فتكشف عن خصوصيتها، وبالتالي فرادتها، بينما تظل (البلاغة) عند قواعديتها، فتكشف عن حقيقة هذه الفرادة في كشفها عن الانحرافات التي في الكتابة. إن الذي أكد الصلات التي بين البلاغة والأسلوبية، رغم استقلال كل منهما.. بعض عن بعض وأيضاً ازدهار كل منهما في مجاله الخاص الآراء والنظريات التي صارت تقدم في الأدب والنقد الأدبي والأسلوب"¹⁸؛ فبقدر ما جمع مبدأ الانحراف أو الانزياح بين البلاغة والأسلوبية بقدر ما نفى كل منهما علاقة الوراثة والبديلة.

ويبرز موقف عبد السلام المسدي في كتابه (الأسلوبية والأسلوب) صريحاً واضحاً يصادر علاقة الوراثة بين الأسلوبية الغربية والبلاغة الغربية، يقول بعد أن أقر العلاقة الوطيدة بين الأسلوبية واللسانيات وهما علما حديثان: "وقوام مصادرتنا التي نطلق منها هو أن للأسلوبية واللسانيات أن تتواجدا، أما الأسلوبية والبلاغة كمتصورين فكريين فتمثلان شحنتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تواجد آني في تفكير أصولي موحد"¹⁹؛ فهو لا يكتفي بمصادرة علاقة الوراثة بينهما، وإنما ينفي تواجدهما في تفكري واحد يؤصل للعلمين، فالمفارقات بينهما كثيرة ومتعددة، تفرق بينهما أكثر مما تجمع بخلاف تداخل الأسلوبية باللسانيات إذ احتوت الثانية منهما الأولى.

ويعلل الباحث حكمه المتضمن مصادرة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، بالرد على القائلين بعلاقة الوراثة والبديلة بينهما، يقول: "والسبب في ذلك يعزى إلى تاريخية الحدث الأسلوبي في العصر الحديث، وإذا تبيننا مسلمات الباحثين والمنظرين وجدناها

تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة وورثتها، معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة، والمفهوم الأصولي للبدل - كما نعلم - أن يتولد عن واقع معطى وريث ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه، فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا²⁰؛ ويتأكد موقف المسدي من وجود بلاغة جديدة ورثت البلاغة القديمة وبعثت فيها الحياة مستقلة فكريا عن الأسلوبية ولكل منهما خصوصياته المميزة له.

وبالرجوع إلى كتابيوسف أبو العدوس (الأسلوبية الرؤية والتطبيق) نجدده يخصص مبحثا (الأسلوبية والبلاغة) في فصله النظري الثاني (الأسلوبية: تعريفها ونشأتها وصلتها بعلم اللغة والنقد الأدبي والبلاغة) يتناول فيه صلة الأسلوبية بالبلاغة استهله بتأكيد مزاحمة الأسلوبية للبلاغة في العصر الحديث مزاحمة دفعت بعض الباحثين الغربيين إلا الحكم بوراثنة الأسلوبية للبلاغة وقيامها بديلا عنها، إلا أن الباحث أبو العدوس يرفض هذه العلاقة، - شأنه شأن عبد السلام المسدي - معللا ذلك أن المرء لا يستطيع "أن يتنكر لحقيقة تنامي العلوم وتطورها المستمر، ولا سيما في إطار الإنسانية، فإنه ليس من اليسير عليه مطلقا أن يتقبل فكرة وراثته علم ما لعلم سابق، طالما أن هذه الوراثة تحمل في طياتها الدلالة على إفاء العلم السابق بوصفه علما مستقلا له تميزه الخاص، واقتصار كينونته، فيما بعد تحقيق الوراثة على تلك الكينونة الظلية التي لا تكاد تبين، ففرق كبير بين أن نقول: إن علما ما قد شهد تطورات كبيرة إلى الأمام، وأن نقول: إن علما ما قد ورثه علم ثان، ففي الحالة الأولى نحن نتكلم عن تطور طبيعي تفرضه الحياة ويحتتمه منطقها، بينما في الحالة الثانية نحن ندعي أن العلم الأول لم يعد يجد أمامه أسباب البقاء متاحة"²¹؛ ليكون مآله الشطب فاسحا المجال لميلاد علم جديد، وهو ما يرفضه أبو العدوس، الذي يقر بوجود علمين منفصلين جنسا وخصوصية، ومتداخلين إجرائيا وهدفيا، أحدهما قديم يتجدد حديثا، والآخر خرج من عباءة الأول ينفي الوراثة والبدلية.

يظهر لنا استعراض آراء الباحثين الجزائريين المعاصرين حول قضية طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة اشتراكهم مع نظرائهم الباحثين العرب المحدثين في تأكيد صلات الاشتراك بينهما ونقاط التقاطع والتداخل من جهة، ومن جهة أخرى محاولات ربط الأسلوبية الغربية الحديثة بالبحوث البلاغية واللغوية العربية التراثية تأكيدا لأصالة الدرس الأسلوبي في المنجز اللغوي والبلاغي والنقدي العربي القديم.

بحث رابح بن خوية في كتابه (مقدمة في الأسلوبية) العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، وأقر في بداية بحثه أنه "لا يتم الحديث عن الأسلوبية بوصفها علما قائم الأسس دون أن يكون مشفوعا بحديث عن علاقتها بعلم البلاغة الذي يعد ضمن العلوم المساعدة لها كما هو حال اللسانيات بما احتوت عليه من معارف تحولت مع الزمن إلى علوم مستقلة"²²؛ وتتبع روابط الاشتراك بينهما موضوعا ومادة، ورأى أن جمود البلاغة وعقمها في مرحلة انحطاطها دفع إلى بعثها من جديد باسم الأسلوبية مكررا ومتبينا فكرة وراثنة الأسلوبية للبلاغة وقيامها بديلا لها.

واستقصى الباحث حضور الدرس الأسلوبي الحديث في المنجز البلاغي التراثي العربي، يقول: "وتراثنا الأدبي عرف الظاهرة الأسلوبية ودرسها ضمن الدرس البلاغي الذي كان أسلوبيًا على وجه الإجمال، وما كان ذلك ليكون إلا لأن الدرس اللغوي واللساني كان سابقا على الدرس البلاغي في التراث العربي. وهكذا التقت الدراسة الأسلوبية بالبلاغية في دراسة أسرار الإعجاز اللغوي والبياني، وتحولت البلاغة القديمة إلى غايات أسلوبية"²³؛ ليتجلى موقف رابح بن خوية ساطعا يؤكد من خلاله وراثنة الأسلوبية الغربية الحديثة للبلاغة الغربية القديمة، ويقر اتصالهما الذي يدل على الافتراق في الوقت نفسه هذا من جهة، ومن جهة أخرى يضم صوته للأصوات العربية التي تؤصل للأسلوبية في البلاغة العربية التراثية.

وبالانتقال إلى نور الدين السد في كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب) نجدده ينطلق من الفوارق بين علم الأسلوبية وعلم البلاغة وغيرها من العلوم، يقول: "إن الحديث عن الأسلوبية من حيث هي علم له متصوراته وله مقاييسه في التعامل مع الخطاب

الأدبي وتحليله يجعله كل ذلك مفارقا لبعض العلوم التي تشترك معه في موضوعه، وهو (الخطاب الأدبي)، ومنها علم البلاغة، غير أن هذه المفارقة لا تعني المقاطعة النهائية بين علم البلاغة وعلم الأسلوب²⁴، فهما يتداخلان بقدر ما يتخارجان، وعدد الباحث سبعة عشر عنصرا للمفارقة تثبت اختلاف الأسلوبية عن البلاغة؛ وقد يدفعنا عدد الاختلافات إلى التساؤل أهي تشمل علاقة الأسلوبية الغربية بالبلاغة الغربية أم يقصد بها البلاغة العربية؟

تحدد إجابة نور الدين السد موقفه من طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، وعلاقة ذلك بالتراث البلاغي العربي، يقول معقبا على عناصر المفارقة السبعة عشر: "هذا إلى جملة فروق أخرى ... وما يمكن ملاحظته في هذا السياق أن الحديث عن الأسلوبية هنا يشمل جميع اتجاهاتها، كما أن الحديث عن علم البلاغة يخص هذا العلم في العربية والفروق المشار إليها في الجدول هي فروق أساسية بين العلمين إلا أن هناك بعض القضايا الهامشية التي يمكن للأسلوبية أن تشترك فيها مع علم البلاغة، وبخاصة إذا تناولت الأسلوبية بالتحليل قضايا بلاغية في الخطاب الأدبي تشكل علامات أسلوبية فيه"²⁵؛ ولعل من أبرز الملاحظات المستخلصة من موقف نور الدين السد من طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة هو إقراره مسألتين: أولهما أن مفارقتها تجمع بين البلاغة الغربية الحديثة والبلاغة العربية، وثانيهما أن الأصل فيهما الاختلاف فهي مفارقة مركزية، وأن تداخلهما يقتصر على ما هو هامشي وعرضي.

وسنحاول تقديم قراءة لكتاب الباحث الجزائري مسعود بودوخة (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) لتبين موقفه من علاقة الأسلوبية من جهة، وكيف مثل هذا الكتاب شكلا من أشكال التلقي الجزائري العربي المعاصر للأسلوبية الغربية الحديثة.

2. الأسلوبية الغربية الحديثة - تحديد المفاهيم والمركزات:

جسد كتاب الباحث الجزائري مسعود بودوخة (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) شكلا من أشكال التلقي الجزائري المغاربي المعاصر للأسلوبية الغربية الحديثة، التي لفتت انتباه الباحثين الجزائريين المعاصرين خصوصا والمغاربة بصفة عامة -على غرار نظرائهم المشاركة - باتجاهاتها المختلفة، فأكثرها فيها البحث والتنقيب والتأليف، منطلقين تارة من التعريف بمفاهيمها وإبراز أسسها النظرية ومركزاتها الإجرائية، وتارة أخرى من تطبيق مستوياتها الإجرائية على المدونات الشعرية والشعرية القديمة والحديثة، ولا يغفل فريق منهم الترجمة والتعريب وتصنيف القواميس المتخصصة في الدرس الأسلوبي وتتبع حضور المصطلح الأسلوبي في المدونة العربية، وقد يتجاوز ذلك كله إلى تقوم الدراسات الأسلوبية الغربية واقتراح البدائل لها أو التأصيل لمنهج أسلوبي عربي أصيل يراعي الخصوصية العربية.

قدّم مسعود بودوخة لكتابه (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) بتوطئة ركّز فيها على إثبات الطابع الجمالي للبلاغة القديمة وعلى استمرارها بجلتها الجديدة بعد أن أفادت من الدراسات النقدية الحديثة "دقة المنهج وتحديد الموضوعات، كما أن الدراسات النقدية الحديثة التفتت إلى ما في البلاغة من عناصر ثرية كالسياق والمقام والجوانب التداولية للخطاب، يضاف إلى ذلك ما تضمنته البلاغة القديمة من جوانب أخرى تتصل بالخطاب كآليات التأثير والإقناع وغيرها"²⁶، ولعل في هذا التركيز على المنحى الجمالي للبلاغة ما يبرره في كثير مما تضمنه فصلا الكتاب، ويرتبط بالمنحى الجمالي للأسلوبية الحديثة.

وقد تدفعنا هذه التوطئة في الوهلة الأولى إلى التساؤل عن علاقة الطابع الجمالي للبلاغة القديمة بالأسلوبية الحديثة موضوع الكتاب، إذ لم يشر صاحب البحث فيها إلى الأسلوبية لا تصريحاً ولا تلميحاً، فقد يبدو الأمر غريباً، وقد يُزِيل تبني الباحث آراء الدارسين الغربيين الذين يرون الأسلوبية وريثة البلاغة أو بديلا عنها هذه الغرابة أو بعضها في محاولة إيجاد العلاقة بين التوطئة وما ورد بعدها؛ أي بين البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة، وهو ما سيظهره الفصل الأول من الدراسة.

استهل الباحث فصله الأول (المنحى الجمالي للدراسات الأسلوبية الحديثة) بتناول المنحى الجمالي في مفاهيم ثلاثة هي: الأسلوبية والشعرية والأدبية من خلال محاولته ضبط حدود هذه المفاهيم بالتركيز على الجوانب الجمالية مستبعدا الأساس العقلي الإقناعي والتعقيد المعياري بلغته الواصفة، وقد أكد أن " من أهم المصطلحات التي استحدثت في القرن العشرين بدائل للبلاغة القديمة واجتهد أصحابها من خلالها في سر أغوار النص والإحاطة بأبعاده الفنية مصطلحات: الأسلوبية والشعرية والأدبية"²⁷؛ ولا يخفى ما في حكم الباحث من إطلاق وتعميم يفتقد للحجة العلمية والأقوال والشواهد التي يدلل بها عليه ويحتج بها له، إذ تباين الآراء حول كون الأسلوبية - مثلا عن المصطلحات التي ذكرها- وريثة البلاغة القديمة وامتداد لها بين الغربيين والعرب كما سبق ذكره في دراستنا هذه.

أورد الباحث أقوال عبد السلام المسدي وعبد المطلب محمد وأحمد درويش وسعد أبو الرضا من العرب وبيير جيرو من الأجانب وهو يتتبع التغير الذي عرفته الأسلوبية بداية بمؤسسها شارل بالي الذي استبعد في تحديد الأسلوبية كل اهتمام جمالي أو أدبي، وعرج قبل ذلك على نشأة الأسلوبية وعلاقتها بالبلاغة القديمة؛ وقد بدا لنا ما قدمه الباحث مقتضبا ينقصه التحليل ومناقشة الأقوال، فلم ننبين معه الطابع الجمالي للأسلوبية الذي أراد الباحث إقراره، يضاف إلى ذلك التركيز على الباحثين العرب الذي تلقوا الأسلوبية بدل الاعتماد على مفهوم الأسلوبية عند المؤسسين لها الغربيين.

انتقل الباحث إلى تحديد مفهوم مصطلح الشعرية وضبط حدوده الاصطلاحية، وعدّ الشعرية بديلا عن البلاغة القديمة -كحال الأسلوبية-، واستشهد برأي قاسم عدنان حسين الذي أبان صنيع الشعرية في الأسلوبية، والتي جاءت "للتستكمل النقص الذي ظهر في الأسلوبية، من حيث إن الشعرية لا تقف عند ما هو حاضر وظاهر في البناء اللغوي في النص الأدبي، وإنما تتجاوز إلى سر ما هو خفي وضمني"²⁸؛ وبالعودة إلى ما أورده قاسم عدنان في كتابه بهذا الخصوص يتبين لنا أن الكلام عن تجاوز الشعرية لظاهر البناء اللغوي إلى الخفي فيه أقره رومان جاكسون في إشارته إلى خصائص الشاعرية وعن علاقة الشعرية والسيمولوجيا، ثم حاول الباحث الربط بين الشعرية والبلاغة القديمة مركزا على الجوانب الجمالية، إذ كثيرا ما اقترنت الوظيفة الشعرية بالوظيفة الجمالية، فخلص إلى تحول مصطلح الشعرية من اقتضاره على جنس الشعر إلى أن يتسع فيشمل الأدب كله.

عرف الباحث مصطلح الأدبية مقرا صعوبة ضبط حدوده وضبابية الكشف عن الأدبية والإمساك به، ويؤكد اشتراك المصطلحات الثلاثة: الأسلوبية والشعرية والأدبية في المنحى الجمالي، ويظهر لنا من خلال ما قدمه الكاتب حول هذه المفاهيم وخاصة المفهوم الثالث أنه كان بالإمكان الاكتفاء بمصطلحي الأسلوبية والشعرية لحضورهما المهيمن في عنوان الكتاب (الأسلوبية وخصائص لغة الشعر) ومتمنه، والاستغناء عن مصطلح الأدبية الذي يحتفي في فهرس الموضوعات؛ يضاف إلى ذلك أن الباحث قد صرح في خلاصة هذا المبحث أن " محاولة الإجابة عن الأسئلة التي أثّرت ضمن هذه المفاهيم أبرزوا كثيرا من القضايا الهامة التي تتصل بمحاولات تفسير الفن القولي وتحديد مقوماته، ومن أهم هذه القضايا مفهوم الأسلوب ومفهوم الشعر وعناصر الوظيفة الجمالية"²⁹، لتكون بذلك الأسلوبية والشعرية محورَي هذه الدراسة، يحققان ما تضمنه العنوان من جهة، وما تضمنه فصلا البحث من جهة أخرى.

تناول الباحث في المبحث الثاني (في مفهوم الأسلوب ومحدداته) المنحى الجمالي لمفهوم الأسلوب من خلال مبدئين بارزين هما: مبدأ الخصوصية والمبدأ الفني الجمالي، ثم انتقل إلى محددات الأسلوب التي حصرها في الاختيار والانزياح والإضافة، وتطرق بعدها إلى مفهوم الشعر وما يميزه عن النثر، وعدد أنماط القصائد، واعتمد في كل ذلك على كتاب جون كوهين (النظرية الشعرية)، وكاد الأمر يقتصر على هذا الكتاب المترجم؛ وختم هذا المبحث بالتطرق إلى الوظيفة الشعرية من خلال ما أورده رومان جاكسون، ولم يعتمد على مراجعه مباشرة بل قدم آراءه من خلال ما فهمه الدارسون له من أمثال عبد السلام المسدي وبيير

جبرو وغيرهما، وكان بإمكان الباحث الاعتماد مباشرة على كتب رومان جاكبسون بلغتها الأصلية أو المترجمة، وهي كتب في المتناول ومتوفرة.

عَنْوَن مسعود بودوخة فصله الثاني بـ (عناصر الوظيفة الجمالية عند الأسلوبيين)، واستهله بعنصر الانزياح متتبعا نشأة هذا المصطلح في الدرس الغربي بداية من ليو سبترز، وكيف شكل هذا المصطلح "دعامة نظرية لعدد من المدارس بالرغم ما بينها من اختلاف من حيث المنطلقات والمناهج"³⁰، وأشار إلى إشكالية ترجمته في الدراسات العربية، وحاول الكشف عن مكامن الجمال في الانزياح الذي استهوى الباحثين كثيرا؛ ثم استعرض أنواع الانزياحات عند إيفانكوس وسابورتا وجون كوهين وصولا إلى رومان جاكبسون وحديثه عن الانزياحات التركيبية ونظيرتها الاستبدالية، ولم يغفل الإشارة إلى دور المدرسة التوليدية التحويلية في ترسيخ مبدأ الانزياح ومفهومه.

ومن خلال وقوفه أمام ربط ريفاتير بين قياس الانزياح وفكرة القارئ النموذجي أقر في نهاية عنصر الانزياح بأننا "بعد كل هذا نجدنا مجبرين على الإقرار بحقيقتين متصلان بمبدأ الانزياح: أولهما أن الانزياح بأشكاله المختلفة ظاهرة تميز أكثر الأساليب الأدبية التي يتوخى منها التأثير الجمالي، ولا يمكن إنكار ما لهذه الظاهرة من أثر نفسي على المتلقي؛ وثانيتهما أنه لا ينبغي أن نبالغ في شأن الانزياح، فليس هو الذي يصنع الأدب دوما، بل ينبغي أن يؤخذ السياق اللغوي وغير اللغوي في الحسبان دوما"³¹، والباحث مصيب كل الإصاغة في استنتاجه أن الانزياح من أهم عناصر الجمالية في النص الأدبي تعضده عناصر جمالية أخرى.

عَدَّ الباحث التوازي من أهم مقومات الأدبية عند علماء الأسلوب، ورأى أن رومان جاكبسون هو الذي أسس هذا المصطلح، وقد خلص إلى ذلك من خلال تحليله مئات القصائد في لغات مختلفة، وكان يعني عنده أن تتماثل المباني والمعاني وتتساوى في سطور المطابقة، وقد يتجاوز مبدأ تكرار العناصر المتساوية إلى ما قد تحويه العناصر من تعارض وتضاد وتحالف، وحضور هذا المبدأ أكثر بروزا في النصوص الشعرية لارتباطه بالوزن والقافية؛ وخلص الباحث إلى أن التوازي "يعد مقوما آخر من مقومات الجمالية عند دارسي الأسلوب، إنه نتيجة من نتائج الانزياح وشكل من أشكاله"³²، لا تخفى أهميته الجمالية في النصوص الشعرية على وجه خاص، وقد يمثل حدا من حدود مفهوم الشعر.

ختم مسعود بودوخة فصله الثاني والأخير بحديثه عن الإيحاء الذي رآه من أهم مقومات الجمال الفني في الأساليب الأدبية، "وهو لا ينفصل عن المقومين اللذين سبق الحديث عنهما من جهة بعدد الإيحاء أحد أهم أغراض الانزياح من حيث إن كل انزياح إنما يهدف إلى الانتقال من مستوى اللغة الإشاري إلى مستوى الإيحاء، ومن جهة أخرى [تسهم] أشكال التناسب المختلفة في توريد الإيحاء"³³، ولا يخفى بذلك ما يحمله عنصر الإيحاء من دلالات تدور في محور الضمنية وغير المباشرة المستخلصة من ثنايا النص ومن ظلاله المستترة.

استعرض الباحث أشكال الإيحاء، فبدأها بالإيحاء الصوتي ثم الإيحاء التركيبي، وأطال الحديث عن الاستعارة ومدى تحقق الإيحاء فيها، ومثل بقول فرانسوا مورو في كتابه (البلاغة) الذي يؤكد فيه أن الأثر الجمالي للطبيعة الانزياحية للاستعارة مرتبط بدرجة الانزياح الذي تمثله، فكلما تباعد طرفاها وتناثرت كانت أكثر إثارة للمتلقي وإدهاشا له؛ ثم تطرق الباحث إلى قضية الغموض وما يتضمنه النص من فراغات وبياض يملأها المتلقي، وعدّ الغموض من أهم عناصر الإيحاء، وخلص إلى أن "الإيحاء من أخص خصائص الأسلوب الأدبي، وأنه أحد أبرز مقومات الجمالية، وإذا كان الإيحاء بالأصل ذا غايات دلالية، فإن أشكاله وظواهره تعدد، فقد يكون إيحاء بالأصوات، وقد يكون بالتركيب وما يعتليها من تغيير وتصرف، وقد يكون بالصور المجازية التي تمثل الاستعارة أشهرها وأوفاهها بذلك، وإن الغموض أكثر مظاهر الإيحاء لفتا لانتباه"³⁴، وذلك من خلال انفتاح النص على قراءات مختلفة ودلالات متباينة ومعاني متعددة تحتاج إلى قارئ مثقف يؤول النص ويستقصي إيحاءاته.

ونخلص مما سبق إلى أن كتاب الباحث الجزائري مسعود بودوخة (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) مثل شكلا من أشكال التلقي العربي والجزائري تحديدا للأسلوبية الغربية الحديثة، اكتفى فيه الباحث إلى التعريف بهذا الوافد الغربي من خلال استعراض المفاهيم وتتبع المنحى الجمالي للأسلوبية المعبر عنه بعناصر الجمالية المحققة للوظيفة الجمالية، ولا يخفى الجهد الذي بذله الباحث للوصول إلى مسعاه، إلا أن البحث افتقد لبعض المراجع التي كانت ستثري البحث وتزيده عمقا في التحليل وحجية في الاحتجاج والتدليل.

3. نظرية النظم - التأصيل والممارسة

إن الكتاب الثاني للباحث الجزائري مسعود بودوخة (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) يمثل شكلا من أشكال تلقي الدرس اللغوي والبلاغي الجزائري لنظرية النظم، وسنحاول تقديم دراسة وصفية تحليلية له للوقوف أمام الكيفية التي تلقى بها صاحب الكتاب نظرية النظم.

في هذا الكتاب وكما يتضح من العنوان يتناول مسعود بودوخة نظرية النظم من حيث أصولها وجذورها ونشأتها، ومن ثم تطبيقاتها، فطريقة اختياره للعنوان ليست بجديدة على مؤلفاته التي تتسم في الكثير من الأحيان باحتوائها مفهوميين مختلفين مترابطين متكاملين، وعلى سبيل المثال كتابه (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) ثم كتابه (مدخل إلى البلاغة العربية وعلومها)، ولم يجد الكتاب محل الدراسة عن هذا النهج (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها)؛ يضاف إلى ذلك ما يعلنه العنوان من مزاجية بين التأصيل والممارسة.

يظهر المؤلف القصد من وراء تأليفه كتابه في مقدمته، إذ يقول: "فهذه مباحث في شرح نظرية النظم التي وضع أصولها وشرح مبادئها عبد القاهر الجرجاني"³⁵، مبرزا أهمية نظرية النظم التي تجتمع عليها عدة علوم كالإعجاز والبلاغة والنقد وعلم الكلام.

والملاحظ في مقدمة الكتاب أنها حوت بعض مكونات مقدمة البحث الأكاديمي من أهمية الموضوع المتمثلة في أهمية نظرية النظم، التي يعدّها ملتقى كثير من العلوم كالإعجاز والبلاغة، "يضاف إلى ذلك وجاهتها وصمودها في الجمل أمام مختلف التيارات التي تمخضت عنها مباحث الإعجاز"³⁶، كما ضمت أهم المصادر التي سيعتمد عليها في بحثه، والتي قصرها على كتاب (دلائل الإعجاز) حين صرح بجرصه "على إيراد نصوص الجرجاني من كتابه دلائل الإعجاز بوصفها مصدر نظرية النظم وأساسها"³⁷؛ غير أنها (المقدمة) أغفلت أهم ما تشكل منه مقدمة البحث وهو المنهج المتبع في الدراسة، إذ لا تخفى أهمية تحديد المنهج المعتمد في البحث الأكاديمي، فهو يعدّ "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة"³⁸.

ويتضح من خلال دراستنا للكتاب أن مسعود بودوخة اعتمد المنهج التاريخي في تتبع نظرية النظم منذ إرهاباتها الأولى حتى نشأتها في نظرية علمية عند عبد القاهر الجرجاني، بالإضافة أيضا إلى استناده إلى إجراءات الوصف والتحليل واستخلاص النتائج في شرحه لنظرية النظم وتطبيقها على ما اختاره من نماذج.

قسم مسعود بودوخة كتابه إلى ثلاثة فصول: تحدث في الفصل الأول عن قضية إعجاز القرآن الكريم التي أدى البحث فيها والكشف عن سرها إلى نشأة نظرية النظم قبل الجرجاني، مبيّناً الأصول الفكرية للنظرية ومختلف المحطات التي مرت بها قبل أن تظهر في شكل نظرية واضحة المعالم على يد عبد القاهر الجرجاني، وفصّل القول في الفصل الثاني في أسس نظرية النظم ومبادئها، كما سيظهر ذلك عند تحليلنا لحتوى الكتاب؛ أما الفصل الأخير، فطبق نظرية النظم على بعض النماذج التي ساقها عبد القاهر الجرجاني في ثنايا شرحه للنظرية.

ابتدأ مسعود بودوخة كتابه بقضية الإعجاز وتطور فكرة النظم، وأكد أن تفرد القرآن الكريم بأسلوبه وقوة تأثيره أدى ببعض الدارسين إلى البحث عن سر خصوصيته وإعجازه، ليفرد القول بعدها عن الصرفة باعتبارها أول ما فُسِّرَ به إعجاز القرآن الكريم، حيث يقول: "فظهر في بدايات النظر القول بالصرفة"³⁹.

وخلص إلى أن القائلين بالصرفة يرون أن الإعجاز ليس في تفوق النص القرآني بلاغة وفصاحة وبياناً، بل هو في صرف الهمم والعزائم عن معارضته التي هي في أصلها ممكنة، ولكن منعوا منها ابتداءً، مما جعل بعضهم كالنظام وأتباعه يرون أن لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار، وأن في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه⁴⁰؛ غير أن مسعود بودوخة يرى أن هذا القول يهمل أهم جانب في خصوصية الخطاب القرآني وهو سر جماله وروعة بيانه التي تميز بها عن غيره من الكلام وسائر ألوان البيان.

والملاحظ أن مسعود بودوخة اكتفى بما قاله الخطابي في قضية الصرفة - وهو من المعارضين لها - دون إطالة الوقوف عليها كثيراً، ولم يتعرض إلى باقي القائلين بها كالنظام والشريف الرضي والجاحظ والرماني وغيرهم، ممن اختلفوا في تعريفهم لها والقول بها، ولعل اكتفائه بقول واحد دون تفصيل القول فيها راجع إلى المعارضة الشديدة التي لقيها القول بالصرفة، فقد صرح أن: "هذا القول الذي لم يحظ بالقبول لدى عامة علماء البيان"⁴¹.

ويدرس بودوخة النظم ما قبل الجرجاني من خلال الخلاف العقائدي بين الدارسين، مبرزاً تأثير الخلفية العقائدية في بلورة فكرة النظم عندهم، وفي ذلك يقول: "ولكن فكرة النظم كانت بحاجة إلى زهاء أربعة قرون لتتطور خلالها في رحاب المذاهب الكلامية والآراء النقدية من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني"⁴²، ويرى أن فكرة النظم ظهرت في أوساط المعتزلة، فقد ذهب بعض الدارسين إلى أن فكرة النظم ظهرت في أوساط المعتزلة الذين أشرعوا باب البحث في إعجاز القرآن الكريم"⁴³، ومن ثم الحديث عن النظم عند الجاحظ الذي عدّه "أول من أورد مصطلح النظم، ووضع الأسس البيانية التي يقوم عليها المفهوم محددًا بذلك معالم لمذهب الاعتزالي في إعجاز القرآن"⁴⁴، مشيراً إلى أن المعتزلة لم يتمسكوا بمصطلح النظم الذي جاء به الجاحظ، ليتعرض من بعد ذلك لنظم الرماني والخطابي والباقلاني.

والقارئ لكتاب (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) يجده لا يحتوي على مفهوم واضح للنظم على الرغم من تتبعه لتطور فكرة النظم من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني، وعند حديثه عن النظم عند القاضي عبد الجبار والجرجاني موضوع النظم لم يبرز الخصوصية المميزة لكل منهما، مثلما فعل مع الجاحظ والرماني والخطابي والباقلاني، مكتفياً بتسمية فصل من كتابه (النظم بين عبد الجبار وعبد القاهر).

ويرى مسعود بودوخة أن ما وصلت إليه نظرية النظم على يد عبد الجبار يضاهي ما وصلت إليه عند عبد القاهر، إذ بلغت "فكرة النظم مع القاضي عبد الجبار درجة من النضج تضاهي ما تحقق على يد عبد القاهر بعد ذلك"⁴⁵، ثم يقر بوجود تقارب شديد بين مذهب القاضي عبد الجبار ومذهب الجرجاني في النظم، ويقول: "والحق أننا إذا تأملنا بعض نصوص القاضي عبد الجبار وجدنا تقارباً شديداً بين مذهبه ومذهب عبد القاهر في النظم"⁴⁶، ويأتي بمثال عن ذلك ليبين أوجه التقارب بين الرجلين وهو الفصاحة، التي لا تظهر في أفراد الكلم، وإنما تظهر بالضم عند القاضي عبد الجبار الذي هو النظم والتعليق عند الجرجاني.

وبعد أخذ ورد ومناقشات لبعض الأقوال التي تدعي أن هناك خلاف بين القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني خلص مسعود بودوخة إلى أن نظرية النظم بلغت درجة متقدمة من النضج مع القاضي عبد الجبار، ثم تبلورت في نظرية واضحة المعالم عند عبد القاهر الجرجاني، فالذي "نطمئن إليه بشأن المسألة أن النظم تطور من حيث المفهوم حتى بلغ مرحلة متقدمة من النضج مع القاضي عبد الجبار، ولكن المفهوم لم يتبلور في نظرية واضحة المعالم إلا على يد عبد القاهر الجرجاني"⁴⁷.

وبحديثه عن الأصول الفكرية لنظرية النظم ينطلق مسعود بودوخة من أهم الخلافات العقائدية بين المعتزلة والأشاعرة حول قضية اللفظ والمعنى، موضحا كيف بنى عبد القاهر الجرجاني نظريته على أسس أشعرية، وكيف استفاد من الجدل القائم بين الفرق الكلامية حول مسألة إعجاز القرآن الكريم⁴⁸؛ أما مبادئ نظرية النظم عند الجرجاني، فقد أوجملها مسعود بودوخة في ثلاث ثنائيات⁴⁹: (المعاني/الألفاظ)، (التراكيب/المفردات)، (صورة المعنى/أصل المعنى) على أن العبرة في العنصر الأول من كل ثنائية، أي: المعاني لا الألفاظ والتراكيب لا المفردات، وصورة المعنى لا أصل المعنى.

وبالانتقال إلى الفصل الأخير من الكتاب الذي سماه مسعود بودوخة (من تطبيقات نظرية النظم) نجد أنهم يتجاوز شرح النماذج التي ساقها عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز من الإسناد والخبر، التقديم والتأخير، الفصل والوصل، وغيرها من النماذج التي تضمنها كتاب دلائل الإعجاز.

ونخلص مما سبق إلى أن مسعود بودوخة قد أصّل لنظرية النظم في بعدها الفكري من خلال بيئتها العقائدية التي ولدت فيها، واستعرض أهم محطاتها قبل تبلورها في نظرية علمية واضحة الأسس عند عبد القاهر الجرجاني، ووضح اختلاف المعتزلة والأشاعرة حول قضية اللفظ والمعنى وأثر ذلك الخلاف على قضية اللفظ والمعنى التي هي من أهم أسس نظرية النظم، إلا أن أهم ما يؤخذ على الكتاب هو غياب مفهوم واضح لنظرية النظم دون ربطه بما توصل إليه الدرس اللساني الحديث، واكتفائه بشرح النظرية في منابعها التراثية، وقد مثل مؤلف الشكل الثاني من تلقي نظرية النظم المتمثل في التأصيل للنظرية وتطبيقها على مباحث النحو العربي والبلاغة العربية.

الخاتمة:

وتخلص دراستنا إلى النتائج التالية:

- * - حاول كثير من الباحثين الغربيين والعرب المحدثين تأكيد العلاقة بين الأسلوبية الغربية الحديثة والبلاغة الغربية القديمة، واجتهد كثير من الباحثين العرب المحدثين في ربط الأسلوبية الغربية الحديثة بالبلاغة العربية التراثية.
- * - تباينت الآراء -عند الغربيين والعرب- حول طبيعة هذه العلاقة بين الوراثة والبديلية وبين التداخل والتقاطع المحافظ على خصوصية كل علم والمنتج لأسلوبية غربية حديثة ترافقها بلاغة غربية جديدة سلفها البلاغة الغربية القديمة.
- * - سعى كثير من الباحثين العرب إلى ربط الأسلوبية الغربية الحديثة بنظيرتها البلاغة العربية التراثية ليؤصلوا للدرس الأسلوبي في البحوث البلاغية واللغوية العربية القديمة، مؤكدين عراقية الدرس الأسلوبي العربي ومعرفة العرب القدماء به.
- * - مثل كتاب الباحث الجزائري مسعود بودوخة (الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية) شكلا من أشكال التلقي الجزائري للأسلوبية الغربية الحديثة، قصره الباحث على التعريف بالأسلوبية الغربية الحديثة مؤكدا وراثتها للبلاغة من خلال استعراض المفاهيم وتتبع المنحى الجمالي للأسلوبية المعبر عنه بعناصر الجمالية المحققة للوظيفة الجمالية.
- * - مثل كتابه (نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها) شكلا من أشكال التلقي الجزائري المعاصر لنظرية النظم التراثية المتجددة، مزج فيه الباحث الجزائري بين التعريف بنظرية النظم وتأصيلها التاريخي، وبين جوانبها التطبيقية الإجرائية في مباحث النحو والبلاغة.

المراجع:

- إلى قاسم عدنان حسين: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في النقد الشعري العربي، مؤسسة علوم القرآن، الإمارات، ط1، 1992.
- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، طرابلس - تونس، ليبيا - تونس، ط3، د.ت.
- مسعود بودوخة: الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2011.
- بيير جيزو: الأسلوبية، ترجمة منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والنشر والترجمة، حلب، ط2، 1994.

- رابح بن خوية: مقدمة في الأسلوبية، علم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2013.
- شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة مبارك العامة، القاهرة، ط2، 1992.
- عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات الكويت، ط3، د.ت.
- عبد القادر المهيري: البلاغة العامة تأليف دوبا وكلنكنبارك وبير، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس، عدد8، 1971.
- عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000.
- فيلي سانديرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة خالد محمود جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط1، 2003.
- مسعود بودوخة: نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط1، 2018.
- نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث تحليل الخطاب الشعري والسري)، دار هومه، الجزائر، ط1، 2010.
- هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 1999.
- يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2007.
- الهوامش:

- هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 1999، ص19.
- ² بيير جيرو: الأسلوبية، ترجمة منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والنشر والترجمة، حلب، ط2، 1994، ص9.
- ³ نفسه، ص17.
- ⁴ نفسه، ص27.
- ⁵ نفسه، ص28.
- ⁶ فيلي سانديرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة خالد محمود جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط1، 2003، ص94.
- ⁷ نفسه، ص99.
- ⁸ نفسه، ص100.
- ⁹ عبد القادر المهيري: البلاغة العامة تأليف دوبا وكلنكنبارك وبير، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس، عدد8، 1971، ص210.
- ¹⁰ نفسه، ص211.
- ¹¹ شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة مبارك العامة، القاهرة، ط2، 1992، ص5 (التقديم).
- ¹² نفسه، ص5.
- ¹³ نفسه، ص5-6.
- ¹⁴ نفسه، ص48-49.
- ¹⁵ نفسه، ص175.
- ¹⁶ نفسه، ص180.
- ¹⁷ عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000، ص45-46.
- ¹⁸ نفسه، ص46.
- ¹⁹ عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، طرابلس - تونس، ليبيا - تونس، ط3، د.ت، ص51-52.
- ²⁰ نفسه، ص52.
- ²¹ يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص62.
- ²² رابح بن خوية: مقدمة في الأسلوبية، علم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2013، ص92.
- ²³ نفسه، ص93.
- ²⁴ نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث تحليل الخطاب الشعري والسري)، دار هومه، الجزائر، ط1، 2010، ج1، ص27.

- ²⁵ نفسه، ص 29.
- ²⁶ مسعود بودوخة: الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن، ط 1، 2011، ص 3.
- ²⁷ نفسه، ص 7.
- ²⁸ نفسه، ص 10. إحالة إلى قاسم عدنان حسين: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في النقد الشعري العربي، مؤسسة علوم القرآن، الإمارات، ط 1، 1992، ص 103-104.
- ²⁹ نفسه، ص 14.
- ³⁰ نفسه، ص 39.
- ³¹ نفسه، ص 47-48.
- ³² نفسه، ص 52.
- ³³ نفسه، ص 52.
- ³⁴ نفسه، ص 63.
- ³⁵ مسعود بودوخة: نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ط 1، 2018، ص 7.
- ³⁶ نفسه، ص 7.
- ³⁷ نفسه، ص 8.
- ³⁸ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات الكويت، ط 3، د. ت، ص 4.
- ³⁹ مسعود بودوخة: نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، ص 11.
- ⁴⁰ نفسه، ص 11.
- ⁴¹ نفسه، ص 12.
- ⁴² نفسه، ص 17.
- ⁴³ نفسه، ص 17.
- ⁴⁴ نفسه، ص 18.
- ⁴⁵ نفسه، ص 28.
- ⁴⁶ نفسه، ص 28.
- ⁴⁷ نفسه، ص 33.
- ⁴⁸ نفسه، ص 43.
- ⁴⁹ نفسه، ص 58.